مجلة الساورة للدراسات الإنسانية والاجتماعية

ISSN: 2477-9881 EISSN: 2676-2153

العدد التسلسلي: 23 / المجلد12 / العدد: 01 (2026)، ص75- 91

دور التحصينات الدفاعية في تأمين قصور الساورة "قصر الواتة أنموذجا "

Role of Defensive Fortifications in Securing the Ksars of Saoura Region: " El Ouata Ksar as a Model"

ط.د مقدم ميلود[1*] ، أ.د بلحاج معروف[2]

[1] جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان(الجزائر)، مخبر التراث الأثري وتثمينه جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان، miloud.mokeddem@univ-bechar.dz

[2] جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان (الجزائر)، archeomarouf@gmail.com

ORCID iD[1] : 0009-0002-2501-7805

تاريخ الاستلام: 2025/02/25	تاريخ القبول: 2026/06/10	تاريخ النشر: 2026/06/12

ملخص: تتناول هذه الدراسة التكيف البشري مع البيئة الصحراوية، حيث دفع المناخ والتضاريس سكان المنطقة إلى بناء مدن محصنة، مثل قصر الواتة، لضمان الاستقرار والحماية من الغزو. يبرز النص أهمية الحصون والأسوار والأبراج في الحفاظ على الأمن، مستعرضًا النمط العمراني للقصر الذي يعكس مخطط المدينة الإسلامية. شهد القصر مرور عدة حضارات بالمنطقة، كما تحتوي أراضي وحمادة المنطقة على مستحثات تدل على قدمها. يتميز قصر الواتة بموقع استراتيجي على هضبة محاطة بالواحات، مما وفر له حصانة طبيعية وأهمية اقتصادية ضمن طرق التجارة القديمة، مثل "طريق الذهب". إذ يعكس القصر نمط الاستقرار الصحراوي حيث ارتبطت القصور بالاستيطان الدائم أكثر من كونها مساكن للأمراء، وما زالت المصطلحات الدالة على "القصور" مستخدمة بين سكان المنطقة.

الكلمات المفتاحية: البيئة الصحراوية، قصر الواتة، الأسوار والأبراج، منطقة الساورة.

Abstract: This study examines human adaptation to the desert environment, as the climate and terrain prompted the inhabitants of the region to build fortified cities, such Ksar el-Ouata, to ensure stability and protection from invasion. The text highlights the importance of castles, walls and towers in maintaining security, reviewing the architectural style of the Ksar that reflects Islamic and Fatimid architecture. The city of El Ouata is located in the Saoura region of southern Algeria, surrounded by palm groves that support agricultural activity. Its name goes back to various origins, including its association with travelers and merchants, or its influence on the Amazigh dialect. Historically.

Key words: The Saharan environment. Ksar of El Ouata. Ramparts and towers. Saoura area.

* المؤلف المرسل

1. مقدمة:

إن تعايش الإنسان مع ظروف بيئته الصحراوية من مناخ ووادي إضافة إلى الواحات ولّد لديه الرغبة والدافعية نحو الاستقرار وتأمين معاشه في جو يحفظ منتجاته من جهة، ولتأمين حياته وأغراضه وكذا حاجياته من جهة أخرى، حيث تطلب ذلك التفكير في تشييد مدن وبناء مجتمعات تعيش وفق إطار مُنظَم ونسق عمراني متلاحم تحت نظام حكم موحد، وذلك لهدفين رئيسيين أولهما التعايش الاجتماعي، وثانيهما الاحتماء من الغزو والحروب المباغتة التي كان يشهدها من وقت لآخر أو من موسم لآخر، فبنى قلعة أو حصن أو ما يعرف بالقصر.

ولما كانت الصحراء مجالا جغرافيا شاسعا، وفضاء لارتياد القوافل التجارية والحجية، كان من الضروري إنشاء عديد القرى والمنشآت العريقة أو القصور وهي من مُخرجات الفكر الجمعي الذي حاول إرضاء رغبة السكان وسعى نحو تلبية كل احتياجاتهم ومتطلباتهم في شتى المجالات، ولحصر العينة المدروسة والمندرجة ضمن إقليم الساورة سلطت الضوء بصفة خاصة على قصر الواتة الحصين بمنشآته العسكرية التي تشبه في شكلها وتخطيطها إلى حد بعيد ما يعرف بالقلعة باعتباره نموذج مصغر، نهدف من خلاله إلى إبراز الدور المحوري لبناء التحصينات العسكرية حول المدن القديمة أو ما يعرف بالمُجمَع السكني العريق ضمن تخطيط إسقاطي يمتد إلى المدينة الاسلامية.

تشمل هذه التحصينات كل من الخنادق والأسوار، إضافة إلى الأبراج وما تحتويه من عناصر بنائية مختلفة الوظائف داخل مركب واحد، وقد اخترت هذا القصر لأستدل به كعينة أولا لمحافظته على خصوصية الحصانة العسكرية ذات التصميم الهندسي المُحكم، والذي ينعكس على منشآته الخارجية الصامدة رغم تغيّر ظروف الطبيعة والزمن، ولتناسق وحدته البنائية في جميع عناصرها بشكل واضح في المقام الثاني.

فكرة التحصين عرفت منذ القدم لدى حضارات غابرة أبادها الزمن لسبب أو لآخر، لكن بقيت معالمها في شكل مباني، أو أطلال، أو شواهد معمارية توحي بضرورة إنشاء حصانة خارجية هدفها صد ورد الهجمات إضافة إلى الحماية الداخلية والخارجية للمبنى بوجه عام.

2. الواتة وجغرافية الموقع:

تقع بلدية الواتة على بعد **45كم** جنوب غرب مقر ولاية بني عباس، حسب التقسيم الولائي الجديد، وهي بذلك تتخذ موقعا وسطا بين ولايتي تيميمون وبشار، بمحاذاة الطريق الوطني رقم **06**، يحدّها شمالا بلدية تاغيت وبني عباس، ومن الجنوب الغربي بلدية بني يخلف، ومن الشرق بلدية كرزاز وتيميمون، ومن الغرب والشمال الغربي بلدية تامترت. تبلغ مساحتها الإجمالية حوالي **7950**كم2.

أما عن موقعها الفلكي؛ فتنحصر بين خط طول **29°** و**51**د و**48**ثا شمالا، ودائرة عرض **1°** و**49**د و**17**ثا غربا، وعلى ارتفاع **433**م، تحتضن واحة نخيل تمتد طوليا بين العرق الكبير ووادي الساورة على مسافة تقدر بـ: 30كلم، ومن الناحية المورفولوجية يحدها العرق الغربي الكبير من الشرق والجنوب الشرقي، وسلسلة جبال لوقارتة من الغرب والجنوب الغربي.

تتكون هذه المنطقة المترامية الأطراف من تسعة قصور، ممتدة على الضفة الشرقية لواد الساورة، وهو ما ساعد على تنشيط الفلاحة بالمنطقة وأعطى للمنطقة طابعها الاقتصادي، وتتوزع قصورها كالتالي: بوحديد _ الواتة قصر _ بوخلوف _ قصر الماء _ أماس _ الماجة _ أنفيد _ أقدال _ البياضة، وهي بذلك تشكّل قرى تحيط بها شبكة نخيل خضراء تكاد تكون أرخبيلا.

مصطلح الساورة إطلالة تاريخية على جذور التسمية:

تسمية الساورة المتداولة اليوم، ضبطها ابن أبي محلي (1022هـ/ 1613م) في مخطوطه، بأنها جمع سوار وجمع الجمع أساورة لقوله تعالى «يحلون فيها من أساور من ذهب «سورة الكهف (الآية 31)، وقال أبو عمر: واحدها إسوار.

يفهم من كلام ابن أبي محلي والرازي، أن واد الساورة أخذ تسميته من كلمة سوار التي تجمع على أساور وأساورة بكسر الواو وفتح الراء، ثم صارت التسمية بمرور الزمن الساورة حيث زيدت لام بعد الألف فصارت أل التعريفية تتقدم التسمية لسهولة التلفّظ بها في اللسان الدارج أو اللهجة العامية، وهذا حسب رأيهما. (محلي، 1613)، لكن تبقى التسمية تطرح الكثير من التساؤلات، ولا يمكننا الجزم اليوم برأي دون آخر في غياب الوثائق، لذلك لا زالت هذه المسألة محل تحقيق بين المختصين.

يتشكل مجرى وادي الساورة ابتداء من بلدية اقلي، التي تعني في اللهجة البربرية المحلية التقاء وادين، حيث يلتقي فيها واد زوزفانة الذي ينطلق من سلسلة الأطلس الصحراوي، مع واد قير الذي القادم من جهة العبادلة، ويمتد مجراه إلى مشارف توات، وهو ما ذكره العياشي في كتابه الرحلة.

***لمحة تاريخية عن الواتة:**

ليس من السهل الإلمام بتاريخ منطقة الواتة، لأننا لم نعثر على مصادر مخطوطة، أو مراجع تتحدث عنها، رغم استغراقنا لوقت كبير في البحث عن ذلك، وهذا ربما راجع لعدم اهتمام المؤرخين والجغرافيين والرحّالة بها، لكونها متوغّلة في الصحراء بعيدة المنال، ولم نجد سوى إشارات طفيفة متناثرة في بعض الكتب، لكننا حاولنا تتبّع أهم المحطات التاريخية من خلال الموروث الشعبي، حيث قمنا بإجراء مقارنة ومقاربة تحليلية للمعطيات التي جمعناها.

وانطلاقا من ذلك وضعنا المراحل التاريخية المختلفة التي مرت بها المنطقة، فكان الطريق الذي سلكه بحثنا لمعرفة تاريخها كالآتي:

بما أن المنطقة معروفة بكثافة واحاتها وبساتينها، ومياهها الجارية التي منبعها الآبار وواد الساورة، احتلت الواتة موقعا استراتيجيا يؤهلها لكي تكون منارة سياحية بين الشمال والجنوب، وقد اختلفت الروايات الشفوية حول جذور تسمية المنطقة بالواتة؛ فبعضها يرى أن المنطقة كانت مأوى لمبيت القوافل التجارية والحجية في رحلتها الطويلة، فكانت التسمية في تلك الفترة "لمباتة"، ثم حِوّرت بمرور الزمن نتيجة للّسان الدارج للمنطقة، فأصبحت تدعى: الواتة.

كما ذهبت أخرى إلى التأكيد بأن التسمية أصلها ينبثق من اللهجة "المحلية القديمة" للمنطقة، لأن لسانهم العامي كان "ألوث"، وهذا نتيجة لعدم نطقهم بعض الحروف بطريقة جيّدة وكثرة استعمال حرف التاء في كلامهم، حيث تنطق الثاء في الدارجة تاء ولا يوجد فرق بينهما في اللغة العامية، فكانوا ينادون شخص واحد لْوَثْ، وبالجمع كانت تنادى الجماعة لواتى، وفي نظرهم بتعاقب القبائل المتوافدة على المنطقة أصبح الاسم: الواتة.

بينما أدب الرحلات، يشير إلى أن المنطقة عرفت باسم "الغابة" لكثرة نخيلها وأشجارها؛ فكانت تقصدها القوافل الذاهبة والآيبة من توات للتزود، ولا زال هذا الاسم متداولا عند بعض المسنّين بالمنطقة، وهو ما ذهب إليه العياشي (ت 1090هـ/ 1679م) في كتابه (الرحلة العياشية) بقوله "...ونزلنا بعيدا منها على شفير الوادي، ثم منه إلى قرب قرية يقال لها بشير، ثم ارتحلنا من هناك وتركنا الغابة عن يسارنا، وهي قرى كثيرة ذات نخيل وهي أكثر قرى الوادي تمرا، وتقصدها العرب كثيرا للميرة"، (العياشي، 2006: 1) ثم تغيّر الاسم بمرور الزمن حسب رأيهم فأصبح: الواتة.

فيما ذهب ابن خلدون إلى أوسع من ذلك، بحيث أن مصطلح "الواتة" "... وهو بطن عظيم متسع من بطون البربر البتر، ينتسبون إلى لوا الأصغر ابن لوا الأكبر بن زحيك، والبربر إذا أرادوا العموم في الجمع زادوا الألف والتاء فصارت الوات، فلما عرّبته العرب حملوه على الأفراد وألحقوا به هاء الجمع، ...وكان من لواتة هؤلاء أمة عظيمة بضواحي تاهرت إلى ناحية القبلة، هؤلاء المعروفون من بطون لواتة ولهم شعوب أخرى كثيرة اندرجوا في البطون وتوزعوا بين القبائل" (ابن خلدون، 1999: 20).

رغم أن هناك بعض الغموض في مدلول تسمية لواتة عند ابن خلدون، إلاّ أننا نرجّح أن قصده يذهب إلى القول بأن قبيلة الواتة كانت كبيرة ومتّسعة في عدة أمصار، ونتيجة للحروب القبلية تفرّقت قبيلة لواتة الكبرى فبعضهم فضّل العيش في التلال، وأغلبهم اتّجه نحو الصحراء وألف بداوتها آنذاك، ويرجح الكثير أن هذا الرأي هو الأقرب للصواب، لكن في رأي كباحث تبقى كل هذه الاجتهادات والآراء مجتمعة عبارة تأويلات تحتمل الخطأ والصواب.

تدل المعطيات التاريخية أن المنطقة كانت مهدا لقبيلة الغنانمة، أي أنهم يمثلون سكانها الأصليين الذين يمتد خط توطنهم من بلدية أولاد خضير إلى غاية قصر لقصيبة بدائرة بني عباس قبل التقسيم الإداري الذي حصل سنة**1961**م، وبذلك نستنتج أن القبائل العربية منها "الغنانمة" امتزجت عبر التاريخ مع قبيلة لواتة الزناتية وصنهاجة، وعمروا المنطقة، وفي قول (العياشي) "...وكانت تقصدها العرب كثيرا للميرة"، وهو ما يوضح ما نتحدث عنه بدخول العرب إلى المنطقة وتمازجهم مع البربر، حيث يؤكد هذا (ابن خلدون) بقوله "...والبربر هم الأمة الثانية في المغرب القديم،...هذا الجيل من الآدميين هم سكان المغرب القديم، ملؤوا البساط والجبال من تلوله وأريافه، وضواحيه وأمصاره، يتخذون البيوت من الحجارة و الطين، ومن الخوض والشجر والوبر، ويظعن أهل العزة

منهم والغلبة لانتجاع المراعي فيها قرب من الرحلة، لا يجاوزن فيها الريف إلى الصحراء والقفار الأملس" ((ابن خلدون، 1999: 89)

وحسب قول (جاكو فيليكس) وهو أحد الباحثين "...يتقاسم الصحراء الجزائرية نوعين من السكان، والبربر يسكنون القصور، ويعتبر البربر هم السكان الأصليين، وهم نتاج ذوبان شعبين بدائيين اللّذين احتلاّ شمال إفريقيا، في الفترات الأولى من التاريخ، عرف الأول بالليبيين في الشرق، والثاني بالجيتول في الغرب"(jacquot, 1849 :40)، وهو ما يدفعنا إلى التساؤل عن أصل البربر الذين لقّبوا بالجيتول وهم من صنهاجة وزناتة، حيث سمّيت منطقتهم جيتوليا.

كما يضيف الباحث الفرنسي (فرنسوا كوميناردي) بقوله "... إنّ البرابرة الجيتول قد اختار البعض منهم البدو والترحال في الهضاب، وتضاريس الصحراء والأطلس الصحراوي، والبعض الآخر اختار حياة الاستقرار في بعض مواقع الأطلس الصحراوي، واستفادوا من وجود عيون الماء، وخصوبة تربتها التي تكونت في عهد البلايستوسين" (François,1995 :45) :

من هذا نكتشف أنّ رأيا الباحثين يتّفقان إلى حد كبير مع ابن خلدون في حديثه عن أصل البربر، ليذهب الكل إلى التأكيد بأنّ البربر هم أصل سكان الصحراء.

وبمقارنتنا التي أجريناها حسب الحياة القصورية بالمنطقة، والتي لا تزال محافظة على أسماء قصورها المنبثقة من اللهجة البربرية (الزناتية القديمة) مثل"أماس" والتي تعني المركز أو مكان الالتقاء في الوسط، وكذلك "أنفيد" التي يقصد بها في نفس اللهجة المحلية حجر إضرام النار أو ما يدعى (التمّيش)، وكذلك تسمية الخندق المحلية التي سنوضحها لاحقا، وكلمة(أفكر) التي يقصد بها قفل الباب، ولفظ (أريفي) والذي يعني هبوب هواء ساخن في فصل الصيف، إضافة إلى ألفاظ عديدة لا يتّسع المجال لذكرها؛ فهذه كلّها

أدلة تؤكّد اختلاف لهجات المنطقة فمنها لهجة البدو، ولهجة البربر(زناتية) التي لم يبق منها إلاّ بعض الكلمات المتداولة محليا.

أما عن تاريخ قصر الواتة؛ فمن باب الأمانة تجدر الإشارة إلا أنه ليس من السهل الإلمام بتاريخ المنطقة في ظل شح وقلة التوثيق المكتوب عنها كما أشرنا سابقا، سوى إشارات طفيفة حاولت جمعها وتتبع مراحلها من أجل سردها، بحثا عن الحقيقة التاريخية، مع أخذ المعلومة الشفوية بتحفظ، بمقاربتنا التحليلية نفترض أن الرحّالة(العياشي) مرّ بالمنطقة في الفترة مابين **1649-1653-1663م**, وهذا يضمن **4** قرون لعمر القصر على الأقل، ثم قوله:"...وهي قرى كثيرة ذات نخيل"، نحن نعرف بأن القرى هي تجمعات سكنية يحكمها نظام واحد، وربما يتمثل هذا النظام في القصر، وهذا يجرنا إلى القول بأن القصور أقيمت قبل زمن العياشي، ثم من خلال العناصر المعمارية والسّمات العمرانية لقصر الواتة، والتي تميل في خصائصها إلى العمارة الفاطمية، يحتمل أن تكون المنطقة قد كانت مجالا لمرور القوافل زمن الفاطميين (المرحلة المغاربية من 296هـ – 362هـ/ 909م- 973م)، أو تعاملهم تجاريا مع سكان المنطقة عن طريق بعض قبائل العرب الهلالية، ونتيجة لتأثر أهل المنطقة بعمائر الجوار وظّفوها في هذا القصر، وبالتالي لابد من التمييز بين فترة تعمير المنطقة وتوطن بعض القبائل بها وبين بناء القصر بالشكل المعماري الذي هو عليه اليوم.

ورغم عدم وجود إثباتات كافية لتاريخ تعمير منطقة الواتة، إلاّ أنّ اتجاه أغلب الجغرافيين و المؤرخين جزم بأنها تعود إلى فترة ما قبل التاريخ، من خلال دراسات أجنبية أجراها بعض الباحثين من بينهم "رامس" بالعثور على بعض المستحثّات والأصداف المتحجّرة بحمادة منطقة مرحومة، إلى غاية منطقة الواتة، والتي لازال بعضها متناثرا في حمادة إيديغ وتامترت والواتة، وهو ما يدعّم الشريط الحجري المفروش طبيعيا على حمادة المنطقة، والذي سمي بجدار الصين للنباتات و الحيوانات المتحجّرة المدعو محليا

(حجيرات الكتبة)، المحمي بموجب المقرّر الوزاري المؤرخ في **11**أوت **1999** الذي يستثني من كل عملية استخراج أو تهيئة لغرض استغلال الموقع الجيولوجي الموافق لتشكيلة "دخيصة"،حيث تقدّر مساحته ب:**220**كم^2، إذ خضعت هذه النتائج إلى نوع من الدراسات المعمّقة التي خلصت إلى أن المنطقة تعود إلى العصر الحجري الحديث.

كما تحتوي منطقة الواتة على عدة مخطوطات الغنية بالمعلومات، خاصة في مجال الفقه وعلوم الدين، والأدب، كالشعر المحلي والنحو، والتي تحتفظ بها زاوية سيد المداني بالحاج بقصر الماجة.

-**1- مفهوم القصر:** جاء تعريفه في لسان العرب على أنه المنزل، وهو كل بيت من حجر قرشية* سمي بذلك لأنه تقصر بداخله الحرم أي تحبس وتحجب فيه، وجمعه قصور (عبد المنعم، 1963: 120-127)؛ مصداقا لقوله تعالى في سورة الرحمن "وحور مقصورات في الخيام "، ويعّرف بأنه ما شّيد من المنازل وعلا (منجد، 1964:633).

إن المغزى من تسمية القصر في المناطق الصحراوية، هو تلك التكتلات السكنية التي تشغل مساحات أحيانا صغيرة، وأخرى كبيرة على شكل قرى أو مدن، تقطنها مجموعات عريقة في أماكن مرتفعة أو محصّنة بسور به أبراج مراقبة، كما يحتوي على مدخل أو أكثر، وتضم تكويناته الداخلية بيوت للإقامة وبعض الساحات، ثم يتوسطه المسجد. وبعض القصور نسبت تسميتها إلى عائلة حاكمة، أو قبيلة سكنت القصر مثل قصر الواتة أو قصر الغنانمة، أو صفة دالة على موقعه.

أما مضمون كلمة القصر بالمنطقة؛ فلا تعنى مسكن الأمير أو الملك كما هو معروف اليوم، بل تعنى الحياة المدنية أو حياة الاستقرار، وكثيرا ما يطلق أهل البوادي على أهل الحضر: "الحضري أو المديني " وأهل المدينة على سكان القرى "القصوري" التي لا زالت متداولة إلى يومنا هذا.

إستراتيجية الموقع:

يتمتع قصر الواتة بحصانة طبيعية والمتمثلة في تواجده بين حدين طبيعيين، مجرى وادي الساورة من جهة الغرب والعرق الغربي الكبير من جهة الشرق، ولعلّ سبب ذلك التموقع هو تسهيل مراقبة التحركات الأجنبية من الأبراج المرتفعة، ومن وراء الكثبان الرملية المحيطة به، ويطل من الناحية الشمالية والجنوبية على القصور الأخرى، ونظرا لكثافة أشجار النخيل المحيطة به، لا يمكن لمن يقف على هضبة الواد أن يعرف موقعه، إلا بعد تجوّله داخل الواحة، ومن إيجابيات ذلك سهولة مراقبة المنخفضات للمرتفع.

المنشآت الحربية والعسكرية بقصر الواتة

الخندق: والذي يدعى باللهجة المحلية (أحفير):

يعد الخندق أحد عناصر التخطيط المعماري الحربي للمدن مند أمد بعيد، كما أنه يكثر في مخططات المدينة الإسلامية؛ فوجوده أساسيا في إعطاء مفردات أخرى للمعمار في عصور ما قبل التاريخ، سيما طرق نصب الكمائن للغزاة، إذ أننا نلمس وجود الخندق في قصور منطقة الساورة عامة وقصر الواتة خاصة ، فهو يحيط به من الجهات الأربع باستثناء المدخل الرئيسي الوحيد للقصر والذي يدعى(فم القصر)، أما عن مراحل إنجازه، تبدأ بترك مسافة حوالي**1.50** م إلى 2م عن السور المحيط بالقصر، وهذا كي لا تتعرض أساساته للهشاشة، ثم يحفر الخندق بأدوات تقليدية مثل : . الفؤوس . الرفش . المعاول . . . الخ، وعمقه يتراوح ما **بين 3 و4** أمتار، وعرضه من **1.50**م إلى 2م . يحتاج انجاز الخندق ما بين **30** و**40** رجلا، يتوزعون في كامل منطقة الحفر المحيطة بالقصر، يعملون في انسجام وهم يرددون بعض الأقوال والأشعار أو المدائح الدينية التي تستمر إلى غاية الانتهاء من الحفر، حيث أن هذا العمل كان يسير على نحو ما كان يسير عليه إنجاز (الفقارة) بعملية تضامنية تدعى التويزة*.

يعتبر الخندق إحدى وسائل حماية القصر من الغزو، لأنه يعيق عملية تقدم العدو للوصول إلى أسوار القصر، كما قد يستعمل كمصيدة حيث يغطى بالجريد، ثم توضع فوقه سواتر ترابية، كي لا يظهر للعابرين أثناء الاقتحام، ومن يسقط فيه يتعسر عليه الصعود بسهولة بسبب العمق الذي قد يصل إلى أربعة أمتار.

بمرور الزمن واكتساب الخبرات تطوّرت عملية حفر الخندق ومنهجية توظيفه في الحروب، فقد تم إيصال الخندق بمصادر للماء، لتملأ في حالة الضرورة؛ فتزداد إعاقتها لحركة العدو ويسهل ضربهم أثناء العبور، كما بنيت في الجوانب الداخلية للخندق حوائط بشكل عمودي بالحجر المشظّى لتصعب عملية التسلق، وفي حالات أخرى كانت تكسى الجدران الداخلية للخندق بالحجر الأملس أو المصقول الذي يؤدي إلى الانزلاق، وكذلك لمنع تسرّب المياه تحت الأساسات فتعمل على هشاشتها[1] (عبد الستار، 2006: 26)، ومفاد فكرة الخندق هو سيطرة المكان المرتفع على المكان المنخفض؛ وأثناء انشغال العدو بعبور الخندق في المنخفض تتوفر فرص جيّدة للمدافعين في الأماكن المرتفعة بجانبه، أو من أعلى السور المجاور له، ومن مزايا الخندق كذلك أنه يساعد على كشف كل من يحاول الوصول إلى داخل القصر من خلال المسارب التي يحفرها العدو في باطن الأرض، كما نلاحظ أنه يعتبر عنصرا معماريا حربيا هاما؛ فإذا وقفنا على آثار الحضارة الفاطمية لوجدناها هي الأخرى قد وظّفت الخنادق في عمائرها.

عموما يمكننا القول بأن الهدف الرئيسي من إنشاء هذا التصميم المحكم، هو حصر العدو في نطاق واحد وتضيّيق الخناق لتسهيل السيطرة عليه، وكان كذلك السبب الرئيسي في وجود مدخل وحيد للقصر بمحاذاة العرق الغربي الكبير، ووجود تكتلات سكنية في الجهة الغربية والجنوبية له، وربما لو وضعت عدة بوابات يكون الهجوم على السكان أسهل باقتحام الواجهة الخلفية للقصر. وتطلعنا السيرة النبوية، أن فكرة إنجاز

*التويزة: عمل اجتماعي تضامني من أجل منفعة مشتركة.

خندق كانت من بين أسباب انتصار الرسول (ص) في إحدى غزواته التي سميت باسمه، ولعلّ ذلك أكبر دليل على إيجابيات ومزايا خطة الخندق.

-ج-الأسوار والأبراج:

تعتبر الأسوار والأبراج من أحسن المخططات الدفاعية التي عرفتها العمارة الإسلامية عامة وقصر الواتة خاصة بعد إستراتيجية الخنادق، ويتجلى ذلك في إيجابياتها الكثيرة.

-ج– 1 أسوار قصر الواتة:

تعريف السّور:

بتشديد السين وضمّها جمع سور من القرآن الكريم، والسور جمع أسوار وسيران، وهو جدار له مواصفات معينة يحيط بالبيت أو البلدة، وكل ما يحيط بشيء من بناء أو غيره، وهو نطاق تتخلّله أبراج يقوم حول القلعة أو المدينة.

أما في المصطلح الأثري المعماري، فإن السور هو جدار عال ضخم يحيط بالبناء لحمايته، أما تعريفنا له فهو الحائط الخارجي الذي يحمي الممتلكات والمنشآت الداخلية العامة للقصر ، وعلى ضوء ما ورد في المصادر من روايات تاريخية عن إنشاء المسلمين للأسوار والبوابات، حيث يلاحظ ذلك الاهتمام البالغ بسرعة إنشائها قبل بناء أي نوعية أخرى من المنشآت، سبب توقّع الهجوم الأجنبي المفاجئ (عبد الستار، 2006: 74)، كما كان للأسوار دورا هاما في تحصين العمارة عبر التاريخ خاصة الإسلامية منها، ولهذا انصب تفكير المسلمين على بنائها كلَبِنَة أولى قصد توفير الحماية والاستقرار الأمني و دفع المضار عن الأهالي، ويمكننا القول بأن الأسوار تؤدي دور الحصانة لمن بداخلها.

لهذه الأسباب وغيرها، كان لابد من وضع تخطيط معماري نظري عفوي لبناء السور عند سكان قصر الواتة، يبلغ طول السور الأمامي المشكل لواجهة قصر الواتة **52,30**م، أما السور الشرقي والغربي فيبلغ طولهما **51,40**م، فهو يأخذ شكل مربع تقريبا،

وما يمكن أن نميّزه بعد دقة الملاحظة، وهو أن الجدار سميك في الأسفل ويتناقص سمكه إلى الأعلى، وهي ميزة لا يمكن للزائر أو المتجوّل أن يكتشفها من أول وهلة, ولكن يتفطن إلى ذلك المتفحص لوضعية السور، إذ يزيد سمكه عند القاعدة بـ1م إلى 1,50م وينتهي في الأعلى بـ40 إلى 30سم، ويصل ارتفاعه إلى 5م، مشكلا بذلك شبه هرم، ويشير ذلك إلى وجود تقنية مدروسة في البناء و التصميم (2)؛ كما تميّزه الصلابة والمتانة ودليل ذلك مرور حوالي 8 قرون من إنشائه و لازال قائما، وكذلك صعوبة هدمه أثناء ترميمه، ومن مزايا ذلك منع تخطيه وإعاقته لعمل الأدوات الحربية التقليدية المستعملة في الحروب مثل: (السيوف البنادق، الأقواس)، كما نلاحظ بعض الفتحات متوسطة الحجم في الواجهة الأمامية للقصر, تعود وظيفتها حسب ما أفادتنا به الرواية الشفوية، إلى مهمة المرأة الصحراوية التي لا ينكر دورها الدفاعي في الحروب، حيث كانت النساء تسخن الماء والزيت في أواني كبيرة، ثم تثبت هذه الأواني بأخشاب مسندة إلى تلك الفتحات، وأثناء عملية تسلق الجدار من طرف العدو يتم صّبه عليهم، وبعد إسقاطهم داخل الخندق يتم رميهم بالحجارة وجذوع النخل حتى يتم القضاء عليهم [2].

يشكّل السور من الجهة الغربية للقصر الجدار الخارجي للمساكن، ويمتد على طول السور من الجهة الشمالية والشرقية والجنوبية أروقة تعمل على تسهيل حركة المدافعين ووصولهم إلى الأبراج، أو بمعنى آخر كانت عبارة عن ممرات مؤدية إلى الأبراج، حيث تمثل حلقات ربط ونقاط اتصال بينها؛ وما نستنتجه من كل هذا أن التحصين كان شرطا أساسيا في قصر الواتة والمتمثل في الأسوار والأبراج.

-ج- 2 أبراج قصر الواتة:

_تعريف البرج:

[2] نقلا عن بعض أعيان المنطقة.

البرج بضم الباء وسكون الراء، وجمعه أبراج، وبروج القصر المحصّن؛ مصداقا لقوله تعالى:"أينما كنتم يدرككم الموت، ولو كنتم في بروج مشيّدة، والبرج أيضا هو البيت الذي يبنى على سور المدينة أو القلعة، والحصن الذي يكون مرتفع البناء مستديرا أو مربعا يعتصم به المقاتلين (محمد رزق، 2002: 34)

أما مدلوله في المصطلح الأثري المعماري، فهو بناء مرتفع في سور المدينة أو القلعة أو الرباط أو القصر، يرابط فيه الجند المكلّفون بالدفاع عنه. أما المفهوم الذي يمكن ضبطه للبرج، فهو مكان المراقبة والترصّد الخارجي لحركة العدو، لمواجهة الهجمات الأجنبية المباغتة.

إن نمط الأبراج لا زال يستعمل حاليا في التحصينات العسكرية الحديثة، وهذا راجع لأهميتها في المراقبة والدفاع ورد الهجمات، زيادة على ذلك وظائفه الأخرى التي نذكر من بينها حسب المصادر الشفوية، أنه كان يعلى منه النداء في حالة الطوارئ بعد خروج أهالي القصر إلى البساتين، وكذلك فهو يؤدي دور المئذنة في الوقت الحالي، حيث كان يرفع منه الآذان في بعض الحالات.

الأبراج هي الأخرى صممت بهندسة خاصة، وكنموذج على ذلك نأخذ البرج الشرقي مثلا حيث يتكوّن من 3طوابق، يحتوي كل منها على مدخل، إذ يبلغ طول طابقه الأرضي من الداخل **3,10**م، وعرضه **2,62**م، وطوله الخارجي **4,70**م، وعرضه الخارجي**3,42**م، فيما يصل ارتفاع البرج إلى **6**أمتار.

كما أفادتنا ذات المصادر، أن الطابق الواحد كان يتّسع لـ **8**حتى **10**مدافعين في البرج [3]، حيث نكتشف ذلك انطلاقا من عدد الفتحات الدفاعية الموجودة في كل طابق، وبما أن البرج الواحد يحتوي على ثلاثة طوابق، فإن عدد المدافعين في كل برج يتراوح ما بين **8**إل**10**مدافعين يتوزعون داخلها، فالأبراج كانت بمثابة كاميرات مراقبة للقصر.

[3] نقلا عن المصادر الشفوية.

من خلال ما تم سرده من معطيات وصفية، وعرض لمجمل المركبات المعمارية للقصر خاصة العسكرية منها، استخلصت بعض النتائج من أهمها: تعايش الإنسان مع بيئته رغم قساوة المناخ، و توظيف كل ما توفره الصحراء من معطيات البيئة، إضافة إلى تنظيم المرافق الداخلية للقصر، كذلك استغلال الفضاءات وتوزيعها بانتظام، تلبية لاحتياجات السكان، مثل الساحة العامة، وتناسق الأزقة والدروب التي تفضي رغم تغير اتجاهاتها إلى المسجد العتيق، باعتباره منبعا روحيا ونقطة اتصال مركزية، أما في قصر الواتة فيمثّل المركز، حيث عرف هذا الطراز المعماري انتشارا واسعا في معظم القصور، وسمي بالعتيق نسبة لقدم تاريخه ومكانته المرموقة لدى السكان (بلحاج، 2002: 213-214)،كما لعبت الحصانة الطبيعية وسط الواحة دورا هام في استراتيجية اختيار الموقع، الذي بني فوق أرضه هذا القصر، كما أن السور الخارجي والأبراج، كان لهما الدور الرئيسي في توفير الحماية والاستقرار، باحتضان كل المرافق الداخلية والسكان، وهذا كله ناجم عن مدى عمق التفكير والتشاور الاجتماعي والتعاون بين الجميع، حيث أفرز تخطيط هندسي منسجم ومنظم بإحكام، رغم طابعه التقليدي البسيط.

خاتمة:

يمكن القول بأن التحصينات الدفاعية كان لها دورا أساسيا في احتواء السكان، ودفع المضار وتطويق المكان، قصد تأمين القصور والقصبات الصحراوية، إذ لم تكن مجرد عناصر معمارية بل كانت وسيلة لضمان الحماية وضمان الاستمرارية والاستقرار في بيئة معروفة بقساوة المناخ وصعوبة المسالك وبعد المنال، إذ أن سماكة الأسوار والأبراج متعددة الطوابق والأبواب المحصنة، كان لها دور كبير في صد ورد الهجمات، وتنظيم عمليتي الدخول والخروج، كما عزز هذا الإجراء الشعور بالأمن و توفير فضاء آمن للحياة اليومية، وفي مقابل هذا نجد أن التحصينات شكلت عنصرا حيويا في البناء، حيث جمعت بين البعد الأمني والوظيفي، كما ساهمت في الحفاظ على التجمعات السكنية

الداخلية عبر الزمن، لتبقى شاهدا حيا على عبقرية الانسان في التكيف مع بيئته ومحيطه وحماية مجتمعه في أصعب الظروف.

ملحق الصور

الصورة1 الواجهة الأمامية للقصر تتوسطها البوابة الرئيسية



الصورة 2 البرج الشرقي للقصر



الصورة 3 البرج الغربي للقصر



الصورة 4 بعض السكنات المطلة على الساحة العامة



الصورة 5 الدكانة أو مكان جلوس كبار السن



أو شيوخ القصر لعقد الاجتماعات

وانتظار وقت الصلاة

قائمة المصادر والمراجع

بالعربية

1- المصادر

القرآن الكريم

أبو العباس أحمد بن أبي محلي، مخطوط: إصليت الخريت في قطع بلعوم العفريت النفرية، عن الخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم100.

أبو سالم العياشي، الرحلة العياشية إلى الديار النورانية، تحقيق سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، مج1، ط1، دار السويدي للنشر،2006.

ابن خلدون عبد الرحمن، تاريخ ابن خلدون، ط1،ج6، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان ،1999

ابن خلدون عبد الرحمن، تاريخ ابن خلدون، ج2، دار العلم للجميع، بيروت،1981.

2- المراجع

ماجد عبد المنعم تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، القاهرة، 1963.

المنجد في اللغة والإعلام، ط2، بيروت، 1684

محمد عبد الستار عثمان، العمارة الفاطمية (الحربية، المدنية، الدينية) ك1، ط1،دار القاهرة، 2006.

عاصم محمد رزق، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، مكتبة مدبولي، ط1، 2002.

مقدم م. (2013). جرد المواقع والمعالم الأثرية بمنطقة الساورة .الساورة للدراسات الإنسانية والإجتماعية , (01), 06-06.

باللغة الأجنبية

Cominardi, François. *Au cœur des monts de Ksours : le ksar de Chellala Dahrania ; introduction et modernité. Revue d'Architecture et Urbanisme*, n◈2, Alger, 1995.

Google Earth. *La région de El Ouata.*

Jacquot, Félix. *Expédition du général Cavaignac dans le Sahara algérien en avril et mai 1849*

.